

الصمت الصادق

بقلم الكاتبة الفنلندية: ايفارليس ووريو

ترجمة : ماتيلدا حليم فهمي

تصف ايفارليس ووريو مقدرتها اللغوية في هذه الكلمات
أتكلم تسع لغات وبعض اللهجات ولا أتكلم احداها صحيحة
او على حسب القواعد . ويعزو بعض أصدقائها موهبتها
الأدبية - على حد قولها - الى استعمال آلة كاتبة متعلمة ، واذا
كان الأمر كذلك فياجبذا لو اقترض كتاب كثيرون هذه
الآلة .

ان أسلوبها واضح دقيق وفيه جمال اللغة السهلة .
ولدت ايفارليس ووريو في فيبوري وهي مدينة قديمة
من مدن فنلنده أسوارها عالية وتقع على البحر ، وعاشت في
كندا وانجلترا . نشرت قصتها الصمت الصادق في صحيفة
ساترداي ايفننج بوست في عددها الصادر بتاريخ ٢٣ مارس
سنة ١٩٦٣ م .

وأخشاب لفظتها أمواج البحر والغاب ،
أما مطبخه فكان مدفأة حديدية أكلها
الصدأ ووعاءين مشروخين من الحديدياكل
منهما ولكنه كان يملك الى جانب هذا
جهازا دقيقا للاكسجين وزوجا من زعانف
المطاط وقناع غطاس .

ربما كان العجوز فيسنت من بلدة
فومنتيرا أسعد رجل عرفته وربما كان
أيضا أشدهم فقرا . كان نحيفا ، مجرد
غصن مقوس ، وكان جلده مجعدا وفي
لون البن ولم يكن يملك قطعة واحدة من
الملابس خالية من الرقع . كان يعيش
في كالا بوجول في كوخ من الحجر

وكما قلت أعتقد أنه لم يكن هناك من هو أسعد منه .

ترددت على فومنتيرا عدة مرات قبل أن أتبين فيسنت بين الصيادين الذين كانوا يجرون زوارقهم تحت الأحراش ومخابئ الغاب عند التقاء الشاطئ بالصخور وأخيرا فهمت أنه لا يمكن أن يكون واحدا منهم فلم يكن لديه وقت للصيد .

وكننت أعرف شيئا من لهجته الايبيسنكو وهي لغة تختلف تماما عن اللغة الاسبانية في كاستيل ولذا فهمت يوم رأيته لأول مرة أنه يطلب في وقار لا أثر فيه للذلة أن يقرضه أحدهم زورقا صغيرا من زوارق الصيد ، ولكنني لم أفهم - وقد ظننته صيادا - كيف يعيش دون أن يكون له زورقه الخاص ، وعرضت عليه زورقي الذي كنت أستأجره في فومنتيرا فلم أكن استخدمه كثيرا فشكرني ومرة أخرى لمست فيه ذلك الوقار الذي أحسست به من قبل ، ووقفت أراقبه وهو يحمل الزورق بجهاز الأكسجين وزعانف المطاط والقناع وانهاء من الفخار للماء ، ولغة صغيرة للزاد ولكنه لم يأخذ معه أية معدات للصيد أو بندقية من النوع الذي يطلق تحت الماء وتساءلت عما ينوي صيده وكيف ، وظللت أراقبه وهو يجدف نحو الأفق وكان يبدو رجلا صغيرا ذا عزيمة جبارة . وظللت أتابعه بعيني حتى لم يعد سوى نقطة صغيرة على الأفق ثم نسيت . وفي كالابوجول من السهل أن تنسى فالمياه الفيروزية عميقة صافية حتى القاع ، والرمال عذراء لم تظاها قدم ، والشاطئ الفضى الأبيض يمتد الى مسافات بعيدة .

وفي السنة التي أتحدث عنها كانت

الأمر كما أصف وكانت الشمس تسطع باستمرار

وأتى يوم هبت فيه الرياح من افريقيا وكان البحر حارا رطباً فلم يخرج الصيادون الى الماء بل جلسوا في الحانة الصغيرة على الشاطئ يشربون النبيذ وينحاثون .

- هل عاد فيسنت ؟

- لم يعد بعد .

- انه مخبول . ان بعقله لوثة طفيفة .

- اطلاقا . ليس الامر كما تقول . انه حسن النية .

- اتظن ذلك ؟ انك مخبول انت الآخر

- أنا ؟ كلا ! أنا أرى وجهة نظره . أنا أفهمه جيدا .

فسألت : فيسنت ؟ انه العجوز صاحب معدات الغطس .

فصاحوا آه . آها ! آها !

وطلبت زجاجة ثانية من نبيذ الجزيرة وهو النوع الذي يشرب هناك فلم يكن يجروا أحدا على طلب غيره من الأصناف المعروفة . وفي جلستنا هناك - والرياح الافريقية تهب وتقلب ماء البحر حتى غدا قاعة في لون الطين وعلا الزبد سطحه - سمعت قصة فيسنت .

كان صبيا طموحا منذ ستين عاما فهاجر جزيرته الصغيرة ، ولكن منذ ستين عاما لم يكن للاسباني عمل يرتزق منه في وطنه اسبانيا فذهب الى البحر على ظهر البواخر الاجنبية . وعاد بعد



أحرص عليه فإنه تحفة نادرة • وعرف
فيسنت للتو نوع الوعاء • كان إبريقا
فينيقيا ذا أذنين يسمى أمفورا دقيق
الصنع وكان عينة نادرة من الأباريق
الكبيرة التي تستعمل في نقل الحمر أو
القلال وكان الصيادون يجدونها قديما
في شباكهم وكثيرا ما كانوا يلقون بها في
البحر ثانية ولكنهم عدلوا عن ردها للبحر
منذ أتت السادة من المدن يشترونها
لتأحفهم •

رفع فيسنت الحقائق فوق ظهره
وأمسك في يده الإبريق الكبير الوردى
الذى خضبه البحر وأخذ يهبط سلم
الباحرة والناس من حوله يدفع وي جذب
بعضهم بعضا هابطين صاعدين على سلم
الباحرة هاتفين وهو يهتف معهم حتى
وصل إلى الرصيف وهناك اصطدم به
حمال آخر كانت قدمه قد أمسكت في

مدة وأخذ يطوف البلاد ويمارس مختلف
الحرف حتى انتهى به الأمر كما انتهى
برجال خير منه بأن عمل حمالا على
رصيف ميناء برشلونة كانت له آمال
واحلام ولكن الاحلام تخذل صاحبها
أحيانا فحمل فيسنت أمتعة الآخرين ،
أمتعة الأسبان الأغنياء والزائرين
والسائحين ووصل به الحال منذ
عشر سنوات إلى الوقوف على رصيف
الميناء والأرقام على قبعة بلوح بيده
لركاب البواخر ويشير إلى نفسه هاتفا
أنا ؟ أنا ؟ رقم ثلاثة وسبعين ؟ •

وفي ذات يوم رأى أمريكى غنى على
باخرة من بالما ويده يلوح بها بعصبية
فناداه ووقف فيسنت في الصف مع بقية
الحمالين وشق طريقه على سلم الباحرة
البيضاء وهناك قال له الأمريكى •
إليك ستة حقائب وهذا الشيء •

حبلى المرسى فافلت الابريق من يده
وهوى الى الارض .

وهكذا طوى التراب الفى سنة من
الارض الكسيرة . ثم ماذا ؟؟

منذ عشرة أعوام فقط كانت هذه
الأواني الخزفية من آثار اليونان
والفينيقيين والرومان لاتزال موجودة فى
كهوف البيزا الضحلة أما اليوم فلم يتبق
منها سوى بعض الأشياء الحديثة العديمة
القيمة وأصبحت القيمة منها نادرة . وقد
نقد الأمريكى بحارا فينيقييا مبلغ
خمسائة دولارا ثمنا لهذا الابريق بعد
أن تحقق من المسئولين قيمته الاثرية
وكان من الطبيعى أن يغضب ولكنه كان
رجلا متزنا وكان يعرف أن حملا مثل
فيسنت لن يكسب خمسمائة دولارا
طوال حياته فاحترم الامر الواقع وكان
مستعدا لأن ينسى ما فقد . ولكن فيسنت
لم يرضه هذا . كان يعرف تقدير الناس
لهذه الابريق والأواني العديمة النفع وقد
رأى خيبة الامل مرتسمة على وجه
الامريكى . وكان فيسنت رجلا شريفا
فأراد أن يصلح ما أفسد . تبع الأمريكى
الى فندقه ورجاه فى اعطائه اسمه وعنوانه
ووعده برد الدين ، وأصبحت قصاصة
الورق - التى مزقت من فكرة الأمريكى
وكتب عليها ابراهيم لنكولن سميث / ٧٢
طريق هدرسون ميلووكى وسكونسنين
أمريكا - أعز ما يملك وأصبحت بالنسبة
لفيسنت نهاية رحلته فى طريق بحثه
الطويل .

واعتقد أن فيسنت كان يرى فى أحلامه
انه قد وصل أخيرا الى ميلووكى متأبطا
الابريق الفينيقى وأخذ يتقبل بفرح وغبطة
مديح الأمريكى الذى كان يكيه له .

وكان فيسنت يعلم حق العلم أنه لن
يملك أبدا المال الكافى لشراء الابريق
ولكن ماذا يمنع من أن يجد ابريقا ؟
آخرون وجدوا ابريق ، مئات منها ،
حين كان صبيا فلم لا يجد ابريقا هو
الآخر ؟ .

لم تكن له أسرة فلم يستغرق وداعه
لحياته فى برشلونة زمنا طويلا .
برشلونه المدينة الصاخبة حيث كان يحمل
الحقائب لقاء كأس صغيرة من النبيذ فى
حانة يملؤها الدخان وحجرة بغير نافذة
يتخذها سقفا للباليه . ولما باع أمتعته
القليلة توفر لديه أجر المركب الى ابيزا
وقليل فوقها ، ومن مؤخرة المركب ألقى
نظرة على المدينة فرآها تهبط الى البحر
وعرف لأول مرة أن السنوات التى أمضاها
هناك كانت له سجناء من صنع يديه فلم
يرفع عينيه مرة عن الشوارع الضيقة نحو
السموات الرحبة المترامية .

ومرة أخرى - كما كان يحدث وهو
صبى - صدح له البحر .

ولما عاد الى الجزر بدا يعد العدة للعمل
الذى اختاره . كان يعرف مكان آخر
قطعة أثرية وجدت وأدرك - كما أدرك
غيره من قبل - أن جميع الأماكن القريبة
من الشاطئ قد جردت من كنوزها .

وتذكر سانديك ابن النجار وهو من
سانتا يولاليا ديل - ريو قد اشتهر
بالسباحة تحت سطح الماء وكان قد وجد
مدفعا فى قاع البحر ولكن هذه قصة
أخرى . فسافر اليه فيسنت فى سيارة
عامة ليستشيريه وكانت نصيحة سانديك
مختصرة .

ابتع لنفسك قناعا وزوجا من زعانف
المطاط وجهازا يمدك بالأكسجين واخرج

بالعجب والرهبة واقسم لهم أنه لم يعرف
فى حياته حرية كتلك التى عرف فى
قاع البحر .

- ولكنك لا تستطيع التنفس هناك .

- المرء يتنفس بعينه ومسامه .

وقال انه لم يسمع قط موسيقى مثل
موسيقى البحر .

- ولكن لا يوجد سوى الصمت تحت
البحر .

- ولكنه صمت صداد - انه كما لو



ارسلت عدة آلات موسيقية أنقى أنغامها
نحو السموات .

هذه احدى مزايا اللغة الاسبانية .
كثيرا ما يتحدث الحاصد بلغة الشعر انها
الطريقة التى تتجمع بها الكلمات .

مضت أيام تلتها أسابيع وشهور ثم
اعوام وفيستنت جاد فى بحثه عن الاناء
الذى اقتضى الشرف وجوده ليحل محل
الاناء المكسور وكانت سعادته تزداد يوما
عن يوم فكان كل يستقبل فرحة جديدة
ومغامرة جديدة ولم تعد أيامه اسيرة
مواعيد وساعات فبطريقة أو باخرى كان
يجد ما يحتاج اليه : سمكة يشويها
أو كأس نبيذ أو قطعة من الخبز أو علبة
كبريت . اما بالنسبة للصيادين فقد

الى عرض البحر ، فهناك فى الجهات النائية
لم تزل بعض البقاع الضحلة التى لايزيد
عمقها على قامة رجل أو ضعفها أو ثلاثة
امثالها مجهولة وفى الكهوف هناك عند
قاع البحر قد تجد بعض الكنوز .

ولكن فيستنت - كثيرين من أبناء
الجزر - لم يكن يعرف السباحة فانفق
مابقى من نقوده كما نصح ساندريك فى
شراء جهاز الاكسجين وزعانف المطاط
والقناع . وعاد على زورق البريد مانوليتو
الى جزيرته فومنتيرا وهناك على الشاطئ
نصب خيمته واحتال للحصول على طعامه
وصب اهتمامه - شأن الرجل الذى ينشد
هدفا معينا - فى تعلم السباحة .

كان قد ناهز السنتين وكان هرما
فالزمن يقسو على الرجال من أمثال
فيستنت الا انه كان شابا فى شوقه الى
التعلم والخروج نحو أفق هدفه البعيد

وتعلم السباحة ، وتعلم الغطس
بمعداته فكان يبدو كالضفدع أو كعقرب
البحر فى المناطق الضحلة حول شواطئ
كالابوجول . وذهب بعيدا وذهب أبعد الى
حيث تتغير المياه الى لون البنفسج حيث
تبدأ الاعماق وكانت فترة تحدث فيها
أكثر مما تحدث طول حياته ، فلم يكن
ليستطيع بعد مرات الغطس الاولى أن
يحتمل فى صمت دهشته وعجبه لما رأى
من جمال غير منتظر فى أعماق البحر
فحكى عن حقائق الأسماك النجمية
المتعددة الألوان وعن الأسماك الوديعه
ذات العيون الحشرية التى كانت تتابعه
وعن أشعة الشمس التى تتحسس طريقها
الى الكهوف الغامضة والصخور حكى كل
ذلك للصيادين الذين كانوا يعملون فوق
سطح الماء وكانت حكاياته منسوجة

يوم هاج البحر فيه فجأة ومزقت الرياح
احشائه فلفظ الزورق الصغير اما الرجل
فلم ير ثانية .

كان البحر ثقيلا .

وفي قاع الزورق هجع ابريق فينيقي
قديم نجا من أيدي البحر والسنين فهو
موثق باحكام وقد غطته الاعشاب
البحرية .

وطلب الى الاب بدرو والصيدا صديقا
فيسنت بوصفى أعرف الانجليزية أن
أكتب الى ابراهيم لنكولن سميث في
ميلووكي وسكونسين بامريكا ففعلت
وكتبت عدة مرات واخيرا لجأت الى رئيس
المدينة .

لم يسمع احد بالرجل .

ربما ضاق الامريكي بالرجل العجوز
الأحمق الذي كسر تحفته فاخترق اسما
يتخلص به منه وربما جاء الرجل من
ميلووكي . لاندري .

أصبح بحثه جزءا من حياتهم على الشاطئ
وفي البحر وكان سخاؤهم فطريا ملبيا .

قص الصيادون على قصة فيسنت يوم
هبّت الرياح من افريقيا وارسلت أمواج
البحر الخضراء العالية تجرى وتهدر
فحصت الافق بحثا عن الزورق الصغير
فلم أره والتفتت الى الاب بدرو كاهن سان
فرناندو الذي أتى يشاركنا جلستنا
وسألته .

ما رأيك يا أبى ؟ هل يجد فيسنت
اناءه الحزفي ؟

فضم الرجل البدين أصابعه القصيرة
وعيناه على الأفق هو الآخر وكان مخبؤنا
يميل مع الريح فوق رهوسنا وقال دون
اضطراب أو قلق :

اسمع يا بنى ان فيسنت وحب نعمة
البحث . وليس من المهم أن يجد المرء
شيئا ولكن المهم هو البحث نفسه . نعم
البحث نفسه .

وفي العام الماضي كنت في فومنتيرا في